المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المعهد العالي للقضاء
قسم السياسة الشرعية

ملخص بحث بعنوان:

السياسة الشرعية في قصة طالوت

دراسة مقارنة

المقدم لنيل درجة الماجستير في السياسة الشرعية

بإعداد الطالب

حسن محمد واصوا

إشراف فضيلة الشيخ الدكتور

سعود بن محمد البشر (حفظه الله تعالى)

العام الجامعي 1430 ــ 1431 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن على نبيه محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون للعالمين نذيرا، وقص فيه ما ثبَّت به فؤاده وكفى به خبيرا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: فلِلقصص القرآنية فوائد كثيرة، قصها الله تعالى لنا لنعتبر بها ونأخذ منه ا ما تستقيم به حياتنا الدنيوية والأخروية، ونجتنب ما يؤدي إلى فساد الأرض مما كان سبب إهلاك من سبق من الأمم.

ومن تلك القصص القرآنية الحافلة بالفوائد والعِبَر، خاصة في جانب الفقه السياسي من الفقه الإسلامي، قصة طالوت قائد بني إسرائيل في جهاد أعداءهم من العمالقة والكنعانيين المقيمين آنذاك في أجزاء من أرض فلسطين، حيث كان بنو إسرائيل أيضا يقيمون في جزء منها، وتحدث بين الطائفتين حروب ومعارك عديدة.

هذه القصة وردت في القرآن الكريم في سورة البقرة في الآيات: من 246 إلى 251، في زمن نبي من أنبياء بني إسرائيل بعد زمن موسى ـ عليه السلام ـ وقبل داود ـ عليه السلام ـ ولم تذكر الآيات اسمه، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم و يتولون أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية، كلما مات نبي خلفه نبي آخر.

استمر الوضع كذلك إلى أن ابتعد بنو إسرائيل مع الزمن عن شرع الله تعالى وعصوا أنبياءه، ووقعوا في المعاصي والمخالفات والمنكرات، فأوقع الله تعالى بهم عذابه ونقمته ، وسلَّط الله تعالى عليهم بدل الأنبياء ملوكا جبَّارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، كما سلط عليهم الأعداء من غيرهم فسبوا ذراريهم وأخرجوهم من ديارهم.

بعد ذلك شعر بنو إسرائيل بالخطر، وأرادوا التغيير بعد ما حلَّ بهم من الذُّلِّ والهوان ، فبحثوا عن المخرج، واتفقوا على مقاتلة أعدائهم واسترداد ديارهم، وتوجَّهوا إلى نبيهم في ذلك الوقت طالبين منه

تعيين أمير لهم لي صدُروا عن رأيه و ينتهوا إلى أمره في تدبير الحرب ضد أعدائهم؛ إذ كانوا قبل ذلك متفرِّقين متناحرين.

فلما قال بنو إسرائيل لنبيهم تلك المقالة، قال لهم: لعلكم تطلبون شيئا وهو إذا كُتب عليكم لا تقومون به، فأجابوه قائلين: "وأي شيء يمنعنا من القتال وقد أُخرجنا من أوطاننا وسُبيت ذرارينا ". ثم أخبرهم نبيهم مجيبا لطلبهم أن الله تعالى قد بعث لهم طالوت ملكا؛ ليقاتلوا تحت حكمه وقيادته أعداءهم، غير أنهم اعترضوا عليه بأن احتقروه و قالوا: كيف يكون ملكا علينا ونحن أحق بالملك منه ؟ ومع هذا فهو فقير ليس عنده مال؟.

وأجابهم نبيهم أن الله تعالى هو الذي اختاره لهم واصطفاه عليهم، ووهبه سعة في العلم والجسم مما يعينه على إقامة الملك وخوض المعركة. وكأن بني إسرائيل استمروا على المعارضة إلى أن ذكر لهم نبيهم من الأمور الحسية ما يدل على صدق تمليكه عليهم، وه و إتيان التابوت الذي كانوا قد فقدوه زمانا في حروبهم مع أعدائهم، والذي كان فيه سكينة تسكن بها قلوبهم، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأتت به الملائكة تحمله وهم يرونه عيانا.

وبعد ذلك خرج طالوت ببني إسرائيل إلى مكان ملاقاة العدو، وأراد الله تعالى أن يبتلي طالوت جندَه؛ ليعلم المطيع والعاصي، فيختار المطيع الذي يُرجى ثباته في ساحة القتال، وينفي من يظهر عصيانه، فأخبر طالوت جنوده قبل توجُّههم للقتال أنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله تعالى فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال إلا أن يكون ما يشربه قليلا كغرفة تؤخذ باليد، ومن لم يذقه بالمرة فإنه منه. لكن عصى أكثرهم إلا القليل منهم؛ لشدة ماكان بهم من العطش فشربوا من النهر الشربَ المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم فلم يشهدوا الفتح؛ لمخالفتهم الأوامر وعدم الصبر على الطاعة والمعصية.

بقي مع طالوت قلة من المؤمنين ممن اغترف غرفة واحدة كما أمر الله تعالى، وكذا من لم يغترف شيئاً من النهر، وجاوز معهم النهر إلى ملاقاة العدو، ولما رأوا قلتهم وكثرة أعدائهم وعُدَّ تهم، قال كثير من جيشه: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، فقال الذين يستيقنون لقاء الله تعالى ، مثبِّتين ومُطَمْئنين

لغيرهم وآمرين لهم بالصبر : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين بالنصر والمعونة والتوفيق.

ولما ثبتوا وتقابل الجيشان، توجَّه إلى الله تعالى هؤلاء القلةُ المؤمنة الذين بقوا مع طالوت يتضرعون إليه، وويطلبون منه الصبر وتثبيت الأقدام والنصر، وبرز جالوت قائد جيش أعدائهم في دروعه الحديدية ومعه سيفه وفأسه وخنجره وقال: "أبرزوا لي من يُقاتِلُني، فإن قتَلني فلكم مُلْكي، وإن قتلْته فلي مُلْككم" .

جبن الناس وخافوا عندما خرج جالوت يطلب مبارِزاً، ولم يجرؤ أحد من جند طالوت على مبارزته، حتى قال طالوت: "من يبرز إلى جالوت ويقتله فأنا أزوجه ابنتي وأشركه في ملكي "، فبرز داود بن إيشا، وسخر منه جالوت حين رآه، إلا أن داود لم يلبث أن رمى جالوت بحجارة من مقلاعه فأصاب رأسه فقتله، وزوَّج طالوت ابنته من داود الذي آتاه الله تعالى الملك والنبوة بعده فصار ملكا نبياً، بعد ما كان الملك في ذرية والنبوة في ذرية أخرى في بني إسرائيل، وعلمه الله تعالى مما يشاء.

اطمأن بنو إسرائيل بعد ذلك في ديارهم، وعبدوا الله آمنين مطمئنين نتيجة الجهاد في سبيل الله تعالى، فلو لم يكن إذن الله تعالى بالجهاد ومحاربة أهل الباطل والفساد لم يحصل ذلك. فمن فضل الله تعالى على الناس أن يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح، ولولا ذلك لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم.

وقد خُتمت القصة بالشهادة لرسوله عليه الصلاة والسلام برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله تعالى عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم، مما دلَّ على أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً.

وفي ذلك تنويه بأن الله تعالى أرسل محمداً عليه الصلاة والسلام كما أرسل من قبله([1])، والله تعالى أعلم.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، 503/2. مرجع سابق. وانظر تفاصيل قصة طالوت: البداية والنهاية لابن كثير،2/ 287. وتاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، 109/2. وتاريخ الطبري، 475/1. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، 471/1. وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 107. وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، 484/2. والقصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث لدكتور صلاح الخالدي، 370/3. وتفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت:310هـ، بتحقيق د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: الأولى

ولما كان الجهاد الذي هو موضوع القصة له أحكام وسياسة متبعة في إقامته والإعلان عنه؛ إذ أمر الجهاد في سبيل الله تعالى مرجعه إلى من ولي أمر المسلمين ، وكانت قصة طالوت مما تضمن بعض الأحكام والسياسات المفيدة في الجهاد، رأى الباحث إبراز تلك الأحكام والسياسات وجمعها في هذا المبحوث المتواضع لعلها أن تضيف للمكتبة الإسلامية معلومة جديدة تنتفع المهتمين بالجانب السياسي من الفقه الإسلامي.

قد تبين في هذه الدراسة أن هذه القصة احتوت على تصرفات سياسية تُعدُّ من السياسة الشرعية بمدلولها الخاص والعام؛ إذ هي بالمدلول الخاص تعني ما يصدر عن أولي الأمر، من أحكام وإجراءات، منوطة بالمصلحة، فيما لم يرد بشأنه دليل خاص، متعين، دون مخالفة للشريعة. وتعني بالمدلول العام الأحكام والتصرفات الاجتهادية المبنية على المصلحة المعتبرة، والتي يدبِّر بها أولو الأمر شؤونَ الأمة دون مخالفة مبادئ الشريعة الكلية المُحكمة، في حكومتها وتنظيمها وقضائها وفي علاقاتها الخارجية التي تربطها بغيرها من الأمم.

ومن التصرفات السياسية التي ظهرت في هذا الدراسة، توحيدُ كلمةِ المجاهدين وصفِّهم تحت إمرة رجل واحد؛ لأن ذلك من أسباب النصر وكسب المعركة بإذن الله تعالى، ووحدة الصف والكلمة من الأهمية بمكان في الظروف الحربية فضلا عن غيرها من ظروف الناس الاجتماعية التي تتطلب الالتفاف حول ولاة أمرهم ولزوم جماعة المسلمين، ولذلك طلب بنو إسرائيل من نبيهم تعيين قائدٍ لهم يصدرون عن أمره في قتالهم في سبيل الله بعد أن كانوا متفرقين، وكان هذا تصرف سياسي تقتضيه المصلحة قبل مواجهة العدو. كما أن من الأمور المهمة في هذه الدراسة أن الجهاد لا بد له من قيادة وراية واحدة لتجنُّب الفوضى.

1422هـ/2001م، 498/4. وقصص من التنزيل للشيخ أحمد محمد عسَّاف، ط: بدون، دار لبنان للطباعة والنشر، صـ: 148ـ149. بيروت لبنان. وتفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، 499/2. والمستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لعبد الكريم زيدان، 403/1. وتفسير معالم التنزيل، للبغوي، صـ: 302. وانظر بقية كتب التفسير والمؤلفات في قصص القرآن الكريم وبني إسرائيل خاصة.

وإذا كان التحاور حول القضايا السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها، قد أصبح اليوم آلية سياسية في بعض المجتمعات فضلا عن السلطات التنظيمية فيها، فينبغي للمحاور أن يرتِّب أدلته عند محاورة غيره إذا أراد أن يُقنعه برأيه، فيبدأ بالدليل الضعيف ثم القويِّ أو العكس حسب الاقتضاء، كما جرى بين بني إسرائيل ونبيهم في تحاورهم حول اختيار طالوت ملكاً قائداً لبني إسرائيل في مقاتلة أعدائهم، وأدلى كلا من الطرفين أدلته لوجهة نظره، ثم انتهى الحوار بإقناع النبي بني إسرائيل برأيه، وهذه سياسية قائمة على مصلحة ولا شك، إذ هي في التدبير للرأي المراد تقريره.

كما ينبغي للجندي في الحرب استخدام السلاح المناسب في الوقت المناسب، فإن من السياسة الحربية التي تتطلبها مواقف المواجهات والقتال العسكري في ساحات القتال، استخدام السلاح الملائم للظرف وحالة العدوُّ، فسلاح الرمي يُستخدم في رمي من بعُد من الأعداء، وسلاح الطعن والضرب على أعضاء الجسم يُستخدم في طعن من قرُب منهم وهكذا. وقد خرج داود لقتل جالوت لا يحمل إلا مقلاعه وحجارةً رماه بها من بعيد فأوقعته على الأرض مقتولاً، وهُزم جيش جالوت بذلك.

وعلاوة على ذلك يجب على الجيش متى وُجدت فرصة القضاء على قائد جيش العدوِّ، أن يستغلَّها ويبادر بذلك، فإنه لما خرج جالوت مبارزاً ثم قُضي عليه في لحظة يسيرة، سهُل بعده انتصار جيش طالوت على أعدائهم، فهذا مما يُسهِّل للجيش الانتصار المبكر بإذن الله تعالى، فسياسة القضاء على القادة في أول أمر الحرب ينبغي الأخذ بها لهذه المصلحة.

ومن السياسة الشرعية أيضا وضع الجوائز؛ تحفيزا وتحريضا على القيام بما فيه جلب المصلحة ودرء المفسدة عن المسلمين، كما حفَّز طالوت جيشه على الخروج لقتل جالوت عندما طلب المبارزة، إذ وعد (أي طالوت) بتزويج بنته ممن يقتل جالوت وإشراكه في ملكه كذلك.

ثم لا يجوز لقائد الجيش أن يطلب مبارزا أو مبارزة جيش عدوِّه؛ لما يترتب على ذلك من مفاسد وضرر يحل بجيشه؛ لأنه إذا أُصيب القائد وغُلب كما حصل لجالوت، كان في ذلك تحطيم لمعنويات الجيش، ودور الشيطان كبير في مثل هذه المواطن، ففي عدم مبارزة القائد مصلحة راجحة على مصلحة إقدامه على هذا، والله تعالى أعلم.

اتضح في هذه الدراسة أن الملأ المذكورين في آيات قصة طالوت، هم جماعة رجال من أشراف الناس أو الرؤساء منهم، الذين يُرجع إلى قولهم عند المشاورة والمحاورة، ويمكن أن يُطلق عليهم بأهل الحل والعقد. كما تبين أيضا أن الشورى والحوار من المبادئ المقرَّرة في الشريعة الإسلامية، وأنهما آليَّتان سياسيَّتان متعلِّقان بالتنظيم.

ومما أوقفتنا عليه هذه الدراسة أن الاجتماع ولزوم الجماعة وتوحيد صف المسلمين من أعظم أسباب القوة للأمة، كما وردت بالحث عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة وكلام الفقهاء، وذلك من الأمور التي تحقق للدولة الإسلامية والأمة كذلك مصالح عظيمة، إذ يحصل به انضباط الناس وإبعاد الفوضى في المجتمع. ولزوم جماعة المسلمين يتضمن معرفة الحقوق التي بين الراعي والرعية من الطاعة بالمعروف والنصيحة والرجوع إلى أولي الأمر من الأمراء والعلماء في جميع الأحوال عموما وفي حال الفتن والبلايا خاصة، كاستنفار الناس لمجاهدة العدو المهاجم أو غيره.

وفي هذه الدراسة أيضا بيان أن الجهاد في سبيل الله تعالى كان مشروعا في الأمم ما قبل الإسلام لأسباب وغايات لا تختلف عن موجباته في الشريعة الإسلامية، ومن ذلك كما أُشير، إعلاء كلمة الله تعالى، ودرء الفساد في الأرض ورد عدوان المعتدين وظلمهم. وفي ذلك ردٌّ على من تطاول على رسول الله صلى الله عليه وسلم والشريعة الإسلامية في شأن الجهاد وافترى على الإسلام والمسلمين بالإرهاب، فإن الجهاد قديم قدم الأقوام والأمم والأنبياء السابقين، فلم الشنُّ والحملُ على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام والإسلام وأتباعه بعد ذلك؟!.

وفي هذه الدراسة ما يدل على أنه كما يكون الجهاد بالنفس كذلك يكون بالمال، وهذا واضح من نصوص الكتاب والسنة الواردة في شأن الجهاد، والتي عند ذكر الجهاد بالنفس جاءت تحثُّ أيضا على بذل المال في سبيل الله تعالى، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تجهيز المجاهدين يستمد من أموال موسري الصحابة، وأحيانا يأخذ البعير ببعيرين إلى الإبل الصدقة.

وبما أن قائد الجيش يحتاج في الغالب إلى دعم مالي لتجهيز جيشه، فإن ذكر بني إسرائيل قلة مال طالوت وكثرة أموالهم قد يكون من باب ما يتطلبه القيام بالملك وقيادة الجيش للمعركة من مال كثير يُستعان به في تجهيز الجيش، وليس من باب النظرة المادية لدى بني إسرائيل في أمر المال.

وجاء في هذه الدراسة أيضا أنه من السياسة الشرعية مراعاة الصفات الم لائمة للأحوال في تولي ة الناس الولايات العامة والخاصة، تحقيقا للمراد ومراعاة للمصلحة المنوط بها تصرفات صاحب الولاية.

وهناك مواقف وأحداث في قصة طالوت تشبه بعض ما وقع في زمن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة، حيث طلب الجهاد ثم التواني والرجوع إلى الدعة بعد ما فُرض، وكون عدد المجاهدين في غزوة بدر الكبرى على عدة جنود طالوت، والرجوع عن القتال من بعض الجيش في غزوة أحد كما وقوع لجيش طالوت.

يجوز امتحان واختبار القائد جيشه والتأكُّد من التعبئة المعنوية للجيش بذلك؛ ليعلم الصادق العازم على القتال من الكاذب، وتلك سياسة شرعية مبنية على مصلحة معتبرة، ويستدل بهذا أيضاً على جواز إجراء الاختبار وامتحان قدرات الأشخاص ممن يُقْدمون على تحمل المسؤوليات، كالوظائف العامة.

ويتبين في هذه الدراسة أن للجهاد أسبابا للنصر إذا اتُخذت أدت إلى الانتصار بإذن الله تعالى، كقوة الاعتماد والتوكل على الله تعالى والتصديق بنصره للمؤمنين، والصبر مع الثبات عند لقاء العدو، وذكر الله تعالى ودعاؤه والإكثار من التضرع إليه والاستنصار به، وأُخرى يجب اجتنابها لما قد يترتب عليها من هزيمة للجيش كمخالفة أوامر القائد وعدم طاعته، وإبعاد المرجفين والمخذِّلين عن الجيش، والله تعالى أعلم.

هذا، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الدراسة الباحث والقارئ، فهو المسؤول تبارك وتعالى يوفق الجميع في الدنيا والآخرة ويرزقنا الإخلاص في كل أمر إنه ولي ذلك والقادر عليه

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.